أبو الأعلى المودودي

الجهاد في سبيل الله

مؤسسة الرسالة



الجهاد في سبيل الله

ابو الأعلى المودودي

مؤسسة الرسالة

الطبعة السادسة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب. ٧٤٦٠ برقياً بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد في سبيل الله

لقد جرت عادة الافرنج ان يُعبِّروا عن كلمة « الجهاد » « بالحرب المقدسة » «Holy War» اذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم. وقد فسرّوها تفسيراً منكراً وتفننوا فيه وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموهة الملفقة ، وقد بلغ الأمر في ذلك ان أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدمـاء وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة انه كلما قرع سمع النـاس صوت هذه الكلمة « الجهاد » تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلتّةً سيوفهـا مُتـَّقِدةً صدورها بنار التعصب والغضب ، متطايراً من عيونهـا شرار الفتك والنهب ، عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » زاحفة الى الأمام ، ما إن رأت

كافراً حتى أمسكت بخناقه وجعلته بين أمرين : اما ان يقول كلمة « لا إله الا الله » فينجو بنفسه وإما ان يُضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماً .

ولقد رسم الدُّهـاةُ هذه « الصورة » بلباقة فائقة وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ، وكان من دهائهم ولبـاقتهم في هذا الفن ان صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر وكتبوا تحتها :

« هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره الى سفك الدماء وجشع الى الفتك بالأبرياء » .

والعجب ، كل العجب ، ان الذين عملوا هذه الصورة وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في إبرازها وعرضها على الانظار ، هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون في مـا بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة وإطفاء لأوار مطامعهم الاشعبية . وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة التي أثاروها على الامم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربهـا وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراضٍ لمستعمراتهم التي يريدون ان يستعمروها ويستبدوا بمنابع ثروتها دون اصحابها الشرعيين ويفتشون عن المناجم وعن المعادن وعما تُغلُّه أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن ان تكون غـذاء لبطون

مصانعهم ومعاملهم ، يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره الى المال والجاه ؛ وبين أيديهم الدبابات المدججة وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء ، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة ، يقطعون على البلاد سبل رزقها وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحيـــاة الكريمة ، يريدون بذلك أن يهيئوا وقوداً لنيران مطامعهم الفاحشة التي لا تزيدها الأيام إلا التهاباً واضطراماً . فلم تكن حروبهم في «سبيل الله» ، وإنما كانت في سبيل شهواتهم الدنيئة وأهوائهم الذميمة ومطامعهم الاشعبية . وان تعجب فعجب حمـــلاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة لم يكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز في أرضها . أو انها كانت تملك تربة خصيبة تغل انواعاً من الحبوب وخيرات الأرض . وان لم يكن هـــذا ولا ذاك ، فبحسبها ذنباً أنها يمكن أن تكون سوقاً لبضائعهم نافقـــة أو مستعمرة لبـــني جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظتهم . وأدهى من كل ذلك وأمرّ أنهم كثيراً ما يغيرون على بلاد آمنة مطمئنة بمجرد أنها تقع في طريقهم إلى بلاد قد استولوا عليها من قبل أو يريدون الآن ان يستولوا عليها ويأخذوا زمام أمرها بأيديهم .

هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال . والذي سبق

لنا من أعمال الفتوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة .
أما أعمالهم المخزية هذه ، فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم المتحضر المتمدن . وايّ بلاد الله يا تُرى ، قد سلمت من عدوانهم وما تخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ؟ واية هذه القارات العظيمة من آسيا وافريقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة ؟ لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة وابدأو واعادوا في عرضها بشكل هائل بشع قد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر اسلافنا .
فما أعظم دهائهم وما أبرعهم في التزوير والتمويه . أما سذاجتنا وبله رجالنا ، فحدّث عن البحر ولا حرج . وأيّ بله اعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التي صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ، وما دار بخلدنا أن ننظر إلى الأيدي الاثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزّورة وأن نبحث عن الاقلام الخفية التي تفننت في تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم وانخداعنا بتلك الصورة المموهة ان اعترانا الخجل والندامة وعدنا نعتذر إلى القوم . نُبدّل كلام الله ونحرف الكلم عن مواضعه ونقول لهم « مالنا وللقتال » ايها السادة !! انما نحن دعاة مبشرون نـدعو إلى دين الله ، دين الأمن والسلام

والدعة ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، نُبلّغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن، بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة. هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص. أما السيف والقتال به فمعاذ الله ان نمت إليه بصلة ، اللهم إلا ان يقال اننا ربما دافعنا عن أنفسنا حيثما اعتدى علينا أحد . ذلك ايضاً قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً . ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد « رسمياً » ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل السيف عمله ، حتى لا يقلق بالكم ولا يُقض عليكم المضجع . فما « الجهاد » اليوم إلا مواصلة الجهود باللسان والقلم ، وليس لنا الا ان نلعب بمرهفات الالسنة وأسنة الأقلام . أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها فأنتم أحق بها وأهلها » .

هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها في ما تقدم . لكننا إذا أنعمنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة « الجهاد في سبيل الله » واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم ، فضلاً عن غير المسلمين ؛ لاح لنا ان مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة :—

فالأول أنهم ظنوا الاسلام نحلة بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة « النحلة » (Religion) عامة .

والثاني أنهم حسبوا المسلمين أمة (Nation) بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال .

فالحقيقة ان خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوّه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن وعاقهم عن إدراك مغزى « الجهاد » الاسلامي، بل الحق ، والحق أحق ان يتبع، ان هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقـــة الدين الاسلامي باسره وقلب الأمر ظهراً لبطن وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشا كلـــه المتشعبة حرجاً ضيقاً لا يرضاه الاسلام وتعاليمه الخالدة .

فالنحلة [١] ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم ، لا يراد بها إلا مجموعة من العقائـــد والعبادات والشعائر . ولا جرم أن النحلة بهذا المعنى لا تعدو أن تكون مسألة شخصية ، فأنت حر في ما تختاره من العقيدة ، ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق

---

(١) وردت في الأصل كلمة « مذهب » التي ترافقها لفظة « Religion » في الانكليزية .

شئت من رضيت به رباً لنفسك . وان أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعياً إلى عقيدتك مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين ، مجادلاً من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الاقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال ، فما لك ولهـا في هذا الشأن ؟ أتريـــد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟ وان كان الإسلام نحلة كنحل العالم ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيف وأدوات الحرب ، كما قالوا . ولو كان موقف الإسلام في نفس الامر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد ولم يكن من الإسلام في وِردْ ولا صَدَر ، لكن الأمر على خلاف ذلك، كما سوف تعرفه في ما يأتي من البيان . وكذلك كلمة « الامة » فما هي إلا عبارةعن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية . فالطائفة التي تكون « أمة » بهذا المعنى لا يبعثها على إستخدام السيف إلا أمران . إما أن يعتدي عليها ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة ، وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدهـــا حقوقها المعروفة . ففي الصورة الأولى منهما ؛ لها سعة في الأمر، وهي لا تخلو من وازع

خلقي يُلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها ، وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً . أما الصورة الثانية أي الإعتداء على حقوق غيرها والاغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب ، فلا يُبيحُها غير بعض الجبابرة المسيطرين ، حتى أن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأميركا أيضاً لا يقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها .

حقيقة الجهاد : -

فان كان الإسلام نحلة كالنحل الأخرى والمسلمون أمة كغيرهم من أمم العالم ؛ فلا جرم ان « الجهاد » الإسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرّة تاجها. لكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة وان المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم ، بل الأمر ان الاسلام فكرة انقلابية ومنهاج إنقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي . ومن هناك تعرف أن لفظ « المسلم » وصف للحزب الإنقلابي العالمي الذي يُكوّنه الاسلام وينظم صفوفه ليكون أداة في أحداث ذلك البرنامج الانقلابي يرمي إليه الإسلام ويطمح إليه ببصره ، والجهاد عبارة عن الكفاح

الانقلابي عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الغاية وإدراك هذا المبتغى .

والاسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهاجه العملي ، شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية ، بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات خاصة ، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما اليهـــا من الافكار والتصورات وبين الافكار والتصورات الشائعة الرائجة . « فالجهاد » أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الاسلام لاداء مهمة وتبيين تفاصيل دعوته . فأنت ترى أن الاسلام قد تجنب لفظة « الحرب » وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال (War) في اللغة العربية واستبدل بها كلمة « الجهـــاد » التي تؤدي معنى « بذل الجهد والسعي » ويرادفهـا كلمة (Struggle) في اللغة الانكليزية ، غير ان لفظة « الجهاد » أبلغ منها تأثيراً وأكثر إحاطة بالمعنى المقصود . فما الذي أفضى بالاسلام الى أن يختار هذه الكلمة الجديدة ، صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ والذي أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحـــد وهو أن لفظة ، « الحرب » كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يُشَبُّ لهيبهُ وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية . والغايات التي ترمي اليها أمثال هذه الحروب لا تعدو

أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ؛ لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ . وبمـــا ان القتال المشروع في الاسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة . فان الاسلام لا ينظر إلى مصلحة أمـــة دون أمة ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب ، وكذلك لا يهمه في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك ، وإن تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهـاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به الى معـارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ومنهاج غير هذا المنهاج ؛ يقاومهـــا الاسلام ويريد أن يقضي عليها قضاء مبرماً ؛ ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الأمة التي ينتمي اليها القائمون بأمرهـــا . فإن غايته استعلاء فكرته وتعميم منهاجه وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ، بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس بذلك راية عدوانه وفساده ؟ والاسلام يتطلب الارض ولا يقتنع بقطعة أو جزء منها ، وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة الارضية كلها ، ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها ، بعد ما تنتزع من أمة

أو أمم شتى ، بل يتطلبها الاسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملي اللذين أكرمه الله بهما وفضله بهما على سائر الاديان والشرائع . وتحقيقاً لهذه البغية السامية يريد الاسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لاحداث انقلاب عام شامل ويبذل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى ، ويسمى هذا الكفاح المستمر استنفاد القوى والبالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة « بالجهاد » . فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد . وإذا عرفت هذا فلا يعجبك اذا قلت : ان تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم واحداث إنقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الاقلام نوع من أنواع « الجهاد » كما ان القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنَّصَفَة أيضاً من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الاموال وتحمل المشاق ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب « الجهاد » العظيم .

في سبيل الله :

لكن « الجهاد » الاسلامي ليس بجهاد لا غاية له ، وإنما هو

الجهاد في سبيل الله وقد لزمه هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً .
وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لتبيين فكرته وإيضاح تعاليمه ، كما أشرت اليه آنفاً . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي الظاهر وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الاسلام واكراههم على قبولها هو « الجهـــاد في سبيل الله » . وذلك ان ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يَسْمُوا بأنفسهم فوق ذلك ويحلقوا في سمـــاء أوسع من سمائهم . ولكن الحق ان « سبيل الله » في المصطلح الإسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون وأسمى غاية وأبعد مراماً مما يظنون بها ويزعمون . فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاءاً لمرضاة الله ، لا تريد به مغنماً أو مكسباً في الحيـــاة العاجلة ، فهو « في سبيل الله» في نظر الاسلام . فاذا أنفقت مما رزقك الله في وجوه الخير والبر، تريد أن تعود عليك هذه المبَرَّةُ بشيء من المنافع الأدبية أو المـــادية في هذه الدار الفانية ، فليس ذلك من سبيل الله في شيء . وأما إذا أسديت الى مسكين أو معوز بمعروفاً لا تريد به إلا ابتغاء وجه ربك ، فلا ريب أن ذلك عمل يُعَدُّ في سبيل الله . فهـــذا المصطلح الإسلامي الخـــاص – أي المصطلح في سبيل الله – يطلق على الأعمال التي تؤدى خالصة لوجه الله من غير أن يشوبهـــا شي

من شوائب الأهواء والشهوات ، يؤديهـا المرء معتقداً أن عمل الانسان لسعادة إخوانه ينيله مرضاة الله تعالى ، وان غاية مـــا يتمناه الرجل من هذه الحياة الدنيا وما يقوم به فيها من عمل هو ابتغاء وجه ربه الأعلى لا غيرُ .

فما قيد الشارع « الجهاد » بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى . فالذي يتطلبه الإسلام انه إذا قام رجل أو جماعة من المسلمين ، تبذل جهودها وتستنفد مساعيها للقضـــاء على النظم البالية الباطلة وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية ، فعليها أن تكون مجردة من كل غرض ؛ مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ، لا تقصد من وراء جهودها وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ، ولا تبتغي بها بدلاً في هذه الحياة الفانية ؛ ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهـاد المتواصل لإعلاء كلمة الله أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحدوثة ، ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعي الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته ويستبد بزمام الأمر ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة بعدما يعزل غـــيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هو القرآن الكريم ينادي بملء صوته :

أَلذِينَ آمَنوْا يُقاتلُوْنَ في سَبِيْلِ اللهِ وَالّذِين كَفَرُوا يُقَاتِلوْنَ في سَبِيلِ الطّاغُوْتِ « النساء : ٧٦ » .

والطغيان ، حسب ما نصت عليه معاجم اللغة ، هو مجاوزة الحد ، وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان ، فهو طاغ ، يقال : طغا السيل : ارتفع حتى جاوز الحد في الكثرة ، ومنه ورد في التنزيل :

(إنّا لمّا طَغَى المَاءُ) « الحاقة : ٦٩ » . فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد . وكذلك إذا تجاوز الإنسان الحد وعلا في الأرض يفسد فيها ويستعبد الناس بالقهر والإكراه ، يسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها ، فذلك هو « القتال في سبيل الطاغوت » الذي ندد به الله وجعله شعار الكفار ودَيْدَنَهم . أما القتال في سبيل الله ، فهو الذي غايته أن يرفرف لواء القانون الالهي العادل على العالمين وتعلو كلمته في الدنيا ، بحيث يتبع المقاتل في سبيل الله ذلك القانون العدل بنفسه وكذلك يحمل غيره من أفراد البشر على اتباعه وامتثال أوامره . وقد وعد الله الذين يقيمون الدين ويُعلون كلمته في أرضه ولا يجاوزون حدوده لا يعتون عن أمره ، شأن المفسدين المتكبرين ، وعدهم الدار الآخرة وسعادتها الأبدية ، كما

قال ، عزّ من قائل :

تِلْكَ الدارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِيْنَ لا يُرِيدَوْنَ عُلُوّاً في الأرضِ ولا فَسَاداً ، والعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ « القصص : ٨٣ » .

وقد ورد في الحديث أنه قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم : « الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله[1] ، وكذلك أخرج أبو داود والنسائي من حديث أُبَيّ رضي الله عنه باسناد جيد ، قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ قال : « لا شيء له » فأعادها ثلاثاً ، كل ذلك يقول « لا شيء له » . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لله

---

(١) متفق عليه (سبل السلام شرح بلوغ المرام : ٣ ، ٦٦) ، وفي رواية عند مسلم عن أبي موسى : قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله . (الصحيح لمسلم : كتاب الامارة) .

وابتغى به وجهه »[1].

فتبين من ذلك أن الله لا يقبل من الجهاد إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم وابتغاء لمرضاته ، لا يشوبه شيء من الأغراض النفسية أو الطائفية والقومية ، ومن ههنا تعرف ما لهذا الشرط – في سبيل الله – من أهمية عظيمة في المصطلح الإسلامي ، وبذلك تدرك ما في تقييد الجهاد الاسلامي بهذا القيد من بعد المرمى وسمو الغاية ، فأنت ترى أن كل حيوان خلقه الله في هذه الأرض مجتهد في سبيل نفسه ، واصل ليله بنهاره لإدراك غايته والوصول الى مرماه ، لكن المسلمين – أي الحزب الانقلابي الذي يدين بالاسلام ويؤمن بمبادئه الانقلابية – يؤمنون قبل كل شيء بأهم مباديء الاسلام الانقلابية ، بل أسسها وعمادها، ألا وهو أن ابذلوا مهجكم وأرواحكم وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل إقامة كلمة الحق وأعدوا لمنازع الشر والطغيان كل ما استطعتم من عُدّة وعتاد ، تدفعونها بقوتكم حيثما كانت وتجتثون شجرة الفساد من جذورها مهما رسخت وتغلغلت عروقها في الأرض ، وهكذا تواصلون جهادكم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » هذا ، ولا ينبغي أن

---

(١) سبل السلام : ٣ ، ٦٧ .

تكون جهودكم ومساعيكم في سبيل مطامعكم الدنيئة أو أن تكون أمة هي أربى من أمة وجنس أعلى من جنس .

الآن ، وقد بينت في ما تقدم شيئاً من معنى « الجهاد الإسلامي ومغزاه الحقيقي الذي قلما يتفطن له الناس في هذا العصر ، أريد أن أصف « الدعوة الانقلابية » التي جاء بها الاسلام وتحدى بها المجتمع البشري على اختلاف العصور والأزمان ، وصفاً موجزاً مناسباً للموقف والمقام ، حتى يكون القراء على بينة من الأمر ويعرفوا بسهولة ما في طبيعة هذه الدعوة من نزوع إلى الجهاد وافتقار اليه ويتيسر لهم إدراك غاية « الجهاد » ومرماه .

دعوة الاسلام الانقلابية :

وقد تضمنت الآية الكريمة :

يا أيُّها النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خلَقَكُمْ . الآية (البقرة : ٢١)

لبابَ هذه الدعوة ، دعوة الاسلام الانقلابية ، وجوهرها ، فانه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال أو الفلاحين أو الملاكين أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع ولا يسميهم

بأسماء أحزابهم وطبقاتهم ، وإنما يخاطب الإسلام بني آدم كافة ، ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري . فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلها ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم أن لا يعتوا عن أمر ربهم ولا يستنكفوا عن عبادته ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق ، فإن الحكم والأمر لله وحده ، وبيده مقاليد السماوات والأرض ، فلا يجوز لأحد من خلقه ، كائناً من كان ، أن يعلو في الأرض ويتكبر ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته ، ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونون سواء في هذه العبودية الشاملة، كما ورد في التنزيل :

تَعَالَوْا إلى كلمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أن لا نَعْبُدَ إلا الله ولا نُشْرِكَ به شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أربَاباً مِنْ دُونِ الله « آل عمران : ٦٤ »

فهذه دعوة إلى انقلاب عالمي شامل ، لا غموض فيها ، ولا إبهام ، فانه قد نادى بملء صوته :

إنِ الحُكْمُ إلّا للهِ . أمرَ أنْ لا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ . ذلك الدِّينُ القَيِّمُ . « يوسف : ٤٠ »

فليس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكاً على الناس ومسيطراً عليهم ، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم ان استقلال فرد من أفراد البشر بالأمـر والنهي من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى هو تكبر في أرض الله بغير الحق وعتو عن أمره وطموح إلى مقام الألوهية . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكاً وأمراء إنما يشركونهم بالله ، وذلك مبعث الفساد في الأرض ، ومنه تنفجر ينـابيع الشر والطغيان . وإذا أنعمت النظر في الأسباب التي تعدل بالانسان عن الفطرة السليمة التي فطره الله عليهـا وتصرفه عن منهاج الحياة المستقيم الذي أرشده إليه ، وجدت ان مرجعها جميعاً إلى أنهم يَنْسَون الله فيُنْسَون حقيقة أنفسهم . وذلك يستلزم أن يقوم رجال أو بيوتات أو طبقات من المجتمع – سواء من أسر القول ومن جهر به – يتبوؤون مناصب الحكم والقهر ، فتفضي بهم هذه السيطرة أن يخرجوا عن حدود الفطرة البشرية وتُسوّل لهم أنفسهم أن يستعبدوا الناس ويخضعوهم لجبروتهم قهراً ، سواء أأعلنوا بذلك أم أخفوه في ضمائرهم . هـذا في جانب ، وبجانب آخر يكون من نتائج هذا الجهل والسفه وعدم معرفة الانسان لجلال الألوهية وجبروتها وجهله بقيمـة المروءة والشهامة التي أودعتها الفطرة البشرية ، يكون من نتائجها آن

يرضى جزء غير يسير من النـــاس جبروت الطغاة المستكبرين وسيطرتهم ويذعنوا لهم بحقهم في الأمر والنهي وينقادوا لأوامرهم خاضعـــين . وذلك هو أساس الفساد في الأرض ومبعث البغي والعدوان والاستغلال الممقوت ، ولذلك أتى الإسلام بنيانـــه من القواعد واجتث شجرته من جذورها ولم يـــدع في القوس منزعاً للريبـــة والشك . وها هو ذا يندد به في آي من الذكر الحكيم محكمة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها : —

وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ « الشعراء : ١٥١ ، ٥٢ » .

وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (الكهف : ٢٨) .

أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلى الظَّالِمِينَ الذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً (هود : ١٨ ، ١٩) .

وهو يسائلهم : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ ؟ (يوسف ٤٠) .

فإن أبيتم عبودية الله الواحد الفرد الصمد ، دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا في الأرض وتمادى بهم الطغيان فاتخذوا

من أنفسهم آلهة وأرباباً من دون الله ، ولن تتخلصوا من نير عبوديتهم أبداً ، فانهم ، لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعيثون في الأرض فساداً ، فان ذلك من طبيعتهم التي طبعوا عليها كما نطق بذلك لسان الوحي :

إنَّ المُلُوكَ إذا دخلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوْهَا وَجعَلُوْا أعِزَّةَ أهلِها أذلَّةً . وكذلِك يفعلُوْن . (النمل : ٤٣) .

وإذا تَولّى سَعى في الأرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها ويُهْلِكَ الحرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفساد . (البقرة : ٢٥)

ولا يغيبن عن بالكم في هذا المقام أن دعوة الإسلام إلى التوحيد وعبادة الله الواحد لم تكن قضية كلامية أو عقيدة لاهوتية فحسب ، شأن غيره من النحل والملل ، بل الامر أنها كانت دعوة الى انقلاب اجتماعي ، أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنَّموا ذروة الالوهية واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة ، فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ، ومنهم من استأثر بالملك والامرة وتحكم في رقاب الناس ، ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض وجعل الناس عالةعليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به ، فارادت دعوةالإسلام أنتقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالاً .

وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم وينقادوا لجبروتهم ، مستندين إلى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها ، فقالوا . (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ من إله غَيْري) و (أَنا ربُّكُم الأعلى) و (أنا أحيي وأمِيتُ) و (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوي الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً ، وطوراً استعملوا جهل الدهماء وسفههم ، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهيا كل آلهة ، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهيا كل، متوارين بأنفسهم من ورائها، يلعبون بعقول الناس ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم ، وهم لا يشعرون . فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد واخلاص العبادة لله الواحد الأحد وتنديده بالكفر والشرك بالله واجتناب الأوثان والطواغيت ، كل ذلك كان يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها والذين يجدون فيها سنداً لهم وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة وخاطبهم قائلاً : (يا قومِ اعبُدوا اللهَ ما لكمْ مِنْ إلهٍ غيرُه) قامت في وجهه الحكومات المتمكنة

في عصره وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البـــلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً ، خرجت تقاومه وتضع في سبيل الدعوة العقبات ، وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية أو شرح لمسألة من مسائل الالهيات ، وإنما كانت نداء لانقلاب اجـــتماعي عالمي ، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين بمناصب العزة والجاه ، المستبدين بمنابع الثراء من الذين يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام .

خصائص دعوة الاسلام الانقلابية :

ومما لا مجال فيه للريب أن رسل الله الكرام – صلوات الله عليهم جميعاً – كانوا كلهم دعاة الانقلاب ورسل التجديد والتغيير ، تجديد النظم السياسية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية وتغييرها تغييراً شاملاً ، وان النبي العربي الأمي ﷺ ، سيد هؤلاء الدعاة وحامل لوائهم . لكن الذي يفرق بين هؤلاء الرسل وغيرهم من دعاة الانقلاب في العالم ويميزهم من بين أولئك تميزاً بيّنـــاً واضحاً ، هو أن دعاة الانقلاب أو « الانقلابيين » حسب العرف الشائع ، مهما أوتوا من سداد الرأي وثقوب الفكر ومهما بلغوا في صدق الطوية وحسن القصد ، لا يمكنهم أصلاً أن يصيبوا هدف العدل الأسمى ويزنوا الأمور بالقسطاس المستقيم . وذلك

أنهم اما أن يكونوا قد نشأوا بأنفسهم في الطبقات المضطهدة في المجتمع أو أقاموا منتصرين للطبقات البائسة المضطهدة من حولهم ، مطالبين بحقوقهم المغصوبة المهضومة ، فينظرون بحكم أحوالهم إلى جميع المسائل والمشاكل بنظرة المنكوبين والطبقات البائسة المظلومة ، فتكون النتيجة أن نظرتهم إلى المسائل وطريق تفكيرهم في معضلات الحياة لا تبقى عادلة مبنية على موازين العدل والقسط العالمية الشاملة للناس جميعاً ، فبينا تراهم يعطفون على طبقة ويبدون لها عواطف الولاء والمناصرة ، إذا بهم يرمقون طبقة أخرى بعين الغضب والازدراء ولا يخفون ما في قلوبهم من العداء والكره الشديد لها . فكلما تفكروا في علاج حاسم لادواء الجور والعسف والطغيان ، غلوا وجاوزوا بدواء هو أشد من ذلك الداء جوراً وأعرق منه في العسف وأكثر طغياناً . وجملة القول انهم لا يتسنى لهم بطبيعة أحوالهم وبيئاتهم – ولا يمكن أن يتسنى لهم – أن يطهروا قلوبهم من ادران العداء والانتقام ويُزكّوا نفوسهم من شوائب الحسد والبغضاء فيضعوا نظاماً اجتماعياً مستنداً إلى أسس العدل وموازين الحق والقسط ، يضمن سعادة البشر أجمعين . أما الأنبياء ورسل الله الكرام – صلوات الله عليهم وسلامه – فلا يمكن أن يتطرق إلى دعوتهم وحركتهم الانقلابية شيء من عواطفهم الشخصية

أو تشوب أعمالهم ومساعيهم شائبة من نوازع قلوبهم وإن اضطُهدوا في رسالتهم وأوذوا في سبيل الحق وأصابهم وأصاب أصحابهم وأتباعهم في سبيلها صنوف من الشدائد والأهوال ، وكيف ؟ وهم قـــاموا برسالتهم بوحي من الله العزيز وأمرٍ من عنده ، والله تعالى شأنه وتباركت أسماؤه ، منزه عن نقائص العواطف البشرية ، ينظر إلى خلقه بنظرة واحدة ما لطبقة من البشر من دالةٍ عليه ، ولا هو ، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، يشكو طبقة أو يضمر لها سخطاً دون سائر الطبقات . فكانت رسل الله الكرام بهـــداية من ربهم ينظرون إلى جميع المسائل ومشاكل الحياة الدنيا بعين الإنسانية الخالصة النقية . وكان جل همهم ومعظم تفكيرهم ماذا عسى أن يكون فيه سعادة الطبقات الجائرة نفسها أيضاً ، وكانوا يسعون دائماً وراء إيجـــاد نظام اجتماعي عادل ، يتمتع في دائرته كل فرد بحقوقه المشروعـة ؛ مقيداً بالقيود اللازمة التي لا مندوحة عنها ، حتى ينظم مـــا بين الفرد والجماعة من العلاقات على أسس الحق والعدل ، يعطى كلٌّ واحد منهما نصيبه من الحقوق . وكذلك يلتزم كل واحد منهما ما عليه من الواجبات للآخر . ومن ثم ترى أن دعوة الرسل الانقلابية لم تتحول قط إلى نزاع وتنافس بين الطبقات . فانهم مـــا جددوا بناء الحياة الاجتماعية بأن يرفعوا طبقة ويضعوا

أخرى مثلها أو يُسلِّطوا بعض الطبقات على بعض في المجتمع ، كلا ، بل انهم اختاروا طريقاً وسطاً وجددوا بنيان المجتمع على قواعد العدل والنصفـــة بحيث يتسنى في دائرتها لجميع أفراد الجنس البشري أن يتمتعوا بحقوقهم الفطرية ويرتقوا بأنفسهم إلى معارج السعادتين المادية والروحية .

الحاجة إلى الجهاد وغايته :

ولست في هذا المقام بصدد بيان تفاصيل هذا النظام الاجتماعي الذي جاء بـه الاسلام والاحاطة بخصائصه ومزاياه ، وكذلك ليس من الميسور استيفاء الكلام عنه في ضمن هذه المقالة ، فان له موضعه ، وسنتوخى البحث فيه والإحاطة بجميع نواحيه حين سنوح الفرصة إن شاء الله تعالى. والذي أردت تبيينه والكشف عن حقيقته بمناسبة الموضوع الذي نحدد بصدده الآن ، هو أن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية وجملة من المناسك والشعائر ، كما يُفهم من معنى الدين في هـذه الأيام ، بل الحق انه نظام كلي شامل يريد أن يقضي على سائر النظم الباطــلة الجائرة الجــارية في العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاماً صالحاً ومنهاجاً معتدلاً يرى أنه خير للانسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاة للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان وسعادة

له وفلاحاً في العاجلة والآجلة معاً .

ودعوته في هذه السبيل ، سبيل الاصلاح والتجديد والهدم والبناء ، عامة للجنس البشري كافة ، لا تختص بأمة دون أمة أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بني آدم جميعاً إلى كلمتـــه ؛ حتى انّـه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله في أرضه واستأثروا بخـيرات الأرض دون سائر الناس ، يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلاً : « لا تطغوا في الأرض وادخلوا في كنف حدود الله التي حدّدها لكم وكُفـّوا أيديكم عما نها الله عنه وحذركم إياه . فان أسلمتم لأمر الله ودِنتم لنظام الحق والعدل الذي أقامـــه للناس خيراً وبركة ، فلكم الأمن والدعة السلامة . فان الحق لا يعادي أحداً ، وإنما يعـــادي الحق الجور والفساد والفحشاء وأن يتعـــدى الرجل حدوده الفطرية ويبتغي ما وراء ذلك ممـــا لاحظ له فيه حسب سنن الكون وفطرة الله التي فطر الناس عليها .

فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلهـا بقبول حسن ، يصير عضواً في « الجمـــاعة الإسلامية » أو « الحزب الإسلامي » لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود أو الغني منهم والفقير ، كلهم سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأمة على أمة أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون ذلك الحزب العـــالمي أو الأمميّ

الذي سمي « حزب الله » بلسان الوحي .

وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهـــاد في سبيل الغاية التي أنشىء لأجلها . فمن طبيعته ومما يستدعيه وجوده ان لا يألو جهداً في القضاء على نظم الحكم التي أسس بنيانها على غير قواعد الإسلام واستئصال شأفتها وأن يستنفد مجهوده في أن يستبدل بهـــا نظاماً للعمران والاجتماع معتدلاً ؛ مؤسساً على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يسميه القرآن الكريم « كلمة الله » . فان لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام الحق ، نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام ولم يجاهد حق جهـــاده في هذه السبيل، فاتتهغايته وقصر عن تحقيق البغية التي أنشيء لأجلها، فإنه ما أنشيء إلا لادراك الغاية وتحقيق هذه البغية، بغية إقامة نظام الحق والعدل ، ولا غاية له ولا عمل إلا الجهـــاد في هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التي بيَّنهـــا الله تعالى في كتابه العزيز بقوله :

كُنْتُمْ خَيْرَ أمَّــةٍ أُخْرِجتْ لِلنَّاس تَأمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَن المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ (آل عمران : ١١٠) .

ولا يظن أحد أن هـــذا الحزب - (حزب الله) بلسان

الوحي – مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين يعظون النــاس في المساجد ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات، لا، ليس الأمر كذلك وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده ويكون شهيداً على الناس . ومن مهمته التي ألقيت على كاهله من أول يوم ، أن يقضي على منـــابع الشر والعدوان ويقطع دابر الجـور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة الذين تكبروا في أرض الله بغير الحق وجعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله ويستأصل شأفة ألوهيتهم ويقيم نظاماً للحكم والعمران يتفيأ ظلاله القاصي والداني والغني والفقير . وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى في غير واحدة من آي الذكر الحكيم :

وَقَاتِلوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَـــةٌ ويكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله (الأنفال : ٣٨)

إلَّا تفْعلُوهُ تكُنْ فِتْنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ (الأنفال : ٧٣)

هُو الَّذي أرسل رسُولَهُ ، بِالهُدى ودِيْنِ الحـــقّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِهَ المُشْرِكُوْن. (التوبة : ٣٣)

فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ولا مندوحة له عن القبض على زمام الحكم ، لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض ، وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ويؤتي أكله إلا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

وأضف الى ذلك أن هذا الحزب ، بصرف النظر عما يرمي اليه من إصلاح العالم وبث الخير والفضيلة في انحاء الأرض كافة ، لا يقدر أن يبقى ثابتاً على خطته متمسكاً بمنهاجه ، عاملاً وفق مقتضياته ، ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك ان حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكنه أن يعيش متمسكاً بمبدئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادىء وغايات غير المبادىء والغايات التي يؤمن بها ويريد السير على منهاجها . فان رجلاً يؤمن بمبادىء الشيوعية ان أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانية [1] متمسكاً بمبدئه سائراً في حياته على البرنامج الذي

(١) كتبت هذه المقالة عام ١٣٥٨ هـ – ١٩٣٩ م .

تقرره الشيوعية ، فلن يتمكن من ذلك أبداً ، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية والنازية تكون مهيمنة عليه قاهرة بما أوتيت من سلطان ، فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلاً . وكذلك ان أراد مسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادىء الاسلام الخالدة وبوده أن يبقى مستمسكاً بمبادىء الاسلام ، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية ، فلن يتسنى له ذلك ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً ، لأن القوانين التي يراها باطلة والضرائب التي يعتقدها غرماً ونهباً لاموال الناس والقضايا التي يحسبها جائرة عن الحق وافتئاتاً على العدل ، والنظم التي يعرف انها مبعث الفساد في الارض ، ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ويرى فيها هلاكاً للأمة يجد كل هذه مهيمنة عليه ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها . فالذي يؤمن بعقيدة ونظام ، فرداً كان أو جماعة ، مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته ويبذل الجهد المستطاع في إقامة نظم للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها ويعتقد أن فيها سعادة للبشر ، لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير عن منهاجه إلا بهذا الطريق . وإذا رأيت رجلاً

لا يسعى وراءغايته أو يغفل عن هذا الواجب ، فاعلم أنه كاذب في دعواه ولما يدخل الإيمـــان في قلبه وبهذا المعنى ورد في التنزيل :

﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

« التوبة : ٤٥ »

وأية شهادةأصدق وأية حجة أنصع وأبلغ من شهادة القرآن وحجته؟ ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآنالكريم على أن الذي لا يلبي نداء الجهاد ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده ، فهو في عــــداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم في ريبهم يترددون . وهذا المقياس الذي يقاس به صدق المرء في عقيدته واخلاصه لها. فان الذي يذعن لنظم الحكم القائمة على فكرة غير الفكرة التي يؤمن بها ، كأنه يعلن للناس انه كاذب في دعواه غير مخلص في

عقيدته . ومن النتائج اللازمة الفطرية لهذا الخضوع والاذعان أن يتزحزح مثل هذا الرجل عن عقيدته ويتدرج إلى الانحلال عن ذلك القليل من الايمان الذي قد يكون باقياً في قلبه بعد الاستسلام للنظم الباطلة والخضوع لها . وذلك انك باديء ذي بدء تستسلم للنظم الباطلة ، وقلبك غير مطمئن به ، ثم يأخذ قلبك يستأنس بها يوماً بعد يوم حتى تطمئن بها وتسكن إليها وتحس من نفسك ميلاً وتشوقاً إليها ، وهكذا تتدرج في الركون إليها والاستئناس بها إلى أن تكون عوناً لهم ومؤازراً في توطيد دعائم النظم الباطلة وتسيير دفة شؤونها ، حتى يأتي عليك يوم وأنت لا تضن ببذل النفوس والنفائس في سبيل إقامة صرح الآراء الباطلة وإحكام بنائها ولا تتحرج في الجهاد بنفسك وذات يدك تقويضاً لدعائم الاسلام وصداً للناس عن سبل الحق والعدل. وإذا بلغ الأمر برجل إلى هذا الحد فلا فرق بينه وبين الكافر إلا أن هذا مجاهر بعدوانه وذلك منافق مماذق يتسمى بأسماء المسلمين زوراً ورئاء الناس ويقول ما لا يؤمن به كذباً وافتراء على الله وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في ما روي عنه :

(والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسيء ولـتـأطـرنـه على الحق أطراً، أو ليضربن

الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليَلعَنَنكُم كما لعنهم) [1] .

الانقلاب العالمي الشامل :

لعلك تبينت مما أسلفنا آنفاً أن غاية (الجهاد في الإسلام) هو هدم بنيان النُظُم المناقضة لمبادئه وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها . وهـذه المهمة ، مهمة احداث إنقلاب إسلامي عام، غير منحصرة في قطر دون قطر، بل ما يريده الاسلام ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة . هذه هي غايته العليا ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره ، إلا أنه لا مندوحة للمسلمين أو (أعضاء الحزب الأسلامي) عن الشروع في مهمتهم باحداث الانقلاب المنشود والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل المحيط بجميع أنحاء الأرض . وذلك ان فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين ، لا يمكنها أصلاً أن تضيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر ، بل الحق أنها

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه من طرق شتى ، راجع تفسير ابن كثير ج٢ . ص ٨٢ .

مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينها ولا تغفل عنها طرفة عين . فان الحق يأبى الحدود الجغرافية ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة ويقول لها مطالباً بحقه : (ما بالكم تقولون أن القضية الفلانية حق في هـذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلاً ، ثم تعود تلك القضية نفسها باطلاً بزعمكم إذا جاوزنا ذاك الجبل أو النهر بأذرع) . الحق حق في كل حال وفي كل مكان ، وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية . الحق ظـله وارف وخـيره عام شامل لا يختص ببيئة دون بيئة ولا قطر دون قطر . فانما وجد الإنسان مقهوراً ؛ فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقـه وينتصر له ، ومهما أصيبت الإنسانية في أبنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن أن يلبوا نداءها ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغياً وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان الوحي ، حيث ورد في التنزيل :

وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الله والمسْتَضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِسَاءِ والوِلْدَانِ الَّذينَ يَقُولُون رَبَّنَا

أَخْرِجْنَا مِنْ هذهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أهْلُهَا (النساء : ٧٥).

وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية ، على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية وأحدثت من نزعات الشتات والاختلاف، قد تشتمل على تلاؤم شامل وتجانس عام بين أجزائها ، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة في قطر بعينه حسب مبادئها وخطتها المرسومة المستبينة ، ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها ولا ترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها . ومن أجل ذلك وجب على الحزب المسلم ، حفظاً لكيانه وابتغاء للاصلاح المنشود أن لا يقتنع بإقامة نظام الحكم الاسلامي في قطر واحد بعينه ، بل من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الأحوال أن يدّخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامي في جانب وراء نشر الفكرة الإسلامية وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها في أقصى الأرض وأدناها ويدعو سكان المعمورة على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ويدينوا بهذا المنهاج الذي يضمن لهم السعادتين سعادتي الدنيا والآخرة ، وبجانب آخر يشمر عن ساق الجدّ ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة ، إذا استطاع ذلك وأعد له عدته،

ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئـه الخالدة التي لا تبلى ولن تبلى جدتهـا على مرور الأيام والليالي .

هذه هي الخطة التي سلكها وهذا هو المنهاج الذي انتهجه النبيُّ ﷺ ومن جاء بعده وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين . فإنهم بدأوا ببلاد العرب التي أشرقت شمس الإسلام من آفاقها وأخضعوهـا أولاً لحكم الاسلام وأدخلوها في كنف المملكة الاسلامية الجديدة، ثم دعا النبي ﷺ الملوك والأمراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والاذعان لأمر الله. فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها . والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن ، شرع في قتالهم وجهادهم . ولما استخلف أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى ، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الإسلامية ، مملكتي الروم والفرس اللتين بلغ من عُتُوّهما وتماديهما في الغَيّ والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق. وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها الصديق رضي الله عنه غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع إليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكه الإسلاميـة الأولى ، حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً .

هذا ، وقد ظن الجمهور من سكان مصر والشام وبلاد الروم والفرس في أول الأمر ان هذه الحملات المتتابعة من العرب وهذه الفتوحات العظيمة التي زادت العرب مجداً وأبهة ، ان هي الا من قبيل خطـــة الاستعباد والاستعمار ، قد اختارها العرب وجعلوها شعارهم ودينهم ، شأن الأمم الجائرة التي سبقتهم في غابر الأزمان . فقد خيل إليهم باديء ذي بدء أن مثل العرب في هذه الفتوحات والغزوات كمثل الأمم من قبلهم ، خرجت من أرضهـــا تستعبد الشعوب المستضعفة وتسوقهم بعصا القهر والعنف وتتصرف في رقابهم وأموالهم تصرف راعي الإبل في ماشيته. ومن ثم ترى أنهم انضووا في أول الأمر تحت لواء ملوك الروم والفرس وتجندوا في جيوشهم وبرزوا للقاء المسلمين وقتالهم. ولكنهم لما تبين لهم أمر المسلمين وما خرجوا من ديارهم لأجله وعرفوا منهاج الانقـــلاب الشامل الذي يريدون تعميمه ونشر كلمته في أقطار الأرض كافة ، لما ظهر لهم أن هؤلاء العرب لا يقولون بالقومية الجائرة وأنهم مـــا تدنست أذيالهم بأرجاس الأغراض القومية ، وأنهم ما نزحوا من بلادهم إلا لإقامة نظام للحكم مؤسس على قواعـــد العدل والنصفة وأنهم ما استلّوا السيوف من أغمادها إلا للقضاء على الطبقات الغاشمة الجائرة التي استبدت بموارد الثراء والرخاء من دونهم وسامتهم أنواع الخسف

والعذاب المهين تحت حماية النظم الكسروية والقيصرية وتبوأت مناصب الألوهية عتواً واستكباراً في الأرض ، لما تبين لهم كل ذلك وشاهدوا حال الغزاة الفاتحين بأعينهم وتجلت لهم أخلاقهم الزكية الطاهرة ، مالوا بطبعهم إلى الحزب الاسلامي وبدأوا يتسللون من جيوش الروم والفرس . وان اضطروا بعد ذلك إلى القتال في صفوفهم أو ألجأتهم الأحوال إلى ذلك ، فلم يقاتلوا إلا مُكرهين وأنفسهم تلومهم على ذلك. ومن ههنا تعرف السبب الذي ساعد المسلمين على الانتصارات الباهرة والفتوح العظيمة التي أحرزوها في أول عهدهم بالحروب والغزوات . ومن أجل ذلك ترى أنه لما رأى سكان هذه البلاد المملكة الاسلامية تسير وفق مبادئها على قوانين العدل والنصفة وشاهدوا نظام الاسلام الاجتماعي يعمل عمله على مرأى ومسمع منهم وعاينوا ما أجدى به ذلك النظام على بلادهم من الرفاهية والطمأنينة جعلوا يُلبون دعوته ويدخلون زرافات ووحدانا في نظام ذلك الحزب العالمي وينضوون تحت لوائه ، إلى أن حملوا بأنفسهم تلك الراية ، راية الاصلاح الشامل والانقلاب العالمي ، وتقدموا إلى مختلف أقطار العالم النائية ، يدعون أهلها إلى الدخول في كنف ذلك النظام الكافل لسعادة البشر والتمتع بخيراته وثمراته .

لا مساغ لتقسيم الجهاد الى الهجومي والدفاعي .

هذا ، واذا تدبرت ما بينته آنفاً وسبرت غوره ، ظهر لك

جليـــاً ان ما اصطلحوا عليه اليوم من تقسيم القتال الهجومي (Offensive) والدفاعي (Defensive) ، لا يصح إطلاقــه على الجهاد الاسلامي البتة . وانما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنيــة فقط ، لأن هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما إلا بالنسبة إلى قطر مخصوص أو أمة بعينها . وأما إذاقام حزب عالمي مستند إلى فكرة انقلابية شاملة لا تفرق بين أمة دون أمة ولا تخص قطراً دون قطر ، يدعو جميع الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها إلى فكرته ومنهاجه ، مفتوحـــة أبوابه لكل من يريد المشاركة في بث تلك الدعـــوة ونشر تلك الفكرة ، ولا يسعى إلا وراء القضاء على الحكومات الجائرة المناقضة لمباديء الحـــق الخالدة وإقامة حكومة صالحة مؤسس بنيانها على قواعد الحق والعدل التي يؤمن بها ويدعو إليها ، أما إذا كان الأمر كذلك فلا مجال في دائرته البتة لما اصطلحوا عليه من نوعي القتـــال الهجومي والدفاعي . وكذلك إذا نظرنا في المسألة بصرف النظر عن هذا المصطلح الشائع ، تبين لنا أنه لا ينطبق هذا التقسيم — الى الهجومي والدفاعي — على الجهاد الاسلامي بحال من الأحوال ، فــــان الجهاد الإسلامي ، إذا أردت الحقيقة ، هجومي ودفـــاعي معـــاً ، هجومي لأن الحزب الإسلامي يضاد ويعـارض

الممالك القائمة على المبادىء المناقضة للاسلام ويريد قطع دابرها ولا يتحرج في إستخدام القوى الحربية لذلك . وأمـــا كونه دفاعياً فلأنه مضطر إلى تشييد بنيان المملكة وتوطيد دعائمهـا حتى يتسنى له العمل وفق برنامجـــه وخطته المرسومة . وغير خافٍ عليك ان الإسلام حزب (Party) فليس من هذه الوجهة دار محدودة بالحدود الجغرافية ، يذود ويدافع عنها ، وإنما يملك مباديء واصولاً يذب عنها ويستميت في الدفاع عنها . وكذلك لا يحمل على « دار » الحزب الذي يعارضه ويناقضه ، وإنما يحمل ويصول على المباديء التي يتمسك بها ولا يغيبن عن بالك أنه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه في الفكرة على ترك عقيدته والايمان بمباديء الاسلام، وإنما يريد الحزب الاسلامي أن يُنتزع زمام الأمر ممن يؤمنون بالمبـاديء والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحمَلة لواء الحق ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

حقوق أهل الذمة :

ومن ههنا تنحل عقدة أخرى طالما استعصى على الناس حلها وأشكل عليهم أمرها . وذلك ان ما تقدم آنفـاً من خصائص الجهاد الإسلامي وبيان مزاياه ، يتضح به جلياً ما يمكن أن يكون من الحقوق في ضمن نطـــاق المملكة الاسلامية للذين لا

يؤمنون بمبادئها ، بل يدينون بمبادىء أخرى غيرها . فالجهاد الإسلامي لا يتعرض لعقائد الناس ومناسكهم أو مناهج شؤونهم الاجتماعية التي اختاروها وآثروها لأنفسهم ، فلهم الخيار في أن يدينوا بما شاؤوا من العقائد ولهم الحرية التامة في أن يختاروا ما استحسنوه من المناهج . لكنه لا يرضى أن تكون لهم الحرية في تسيير دفة الحكم على منهاج ما أنزل الله به من سلطان. وكذلك لا يسمح لهم ولا يعترف لهم بحق في أن تسير عقودهم ومعاملاتهم في دائرة المملكة الاسلامية على الطرق الفاسدة التي هي شر على المجتمع ، وفيها خراب للعمران ، وان كانوا قد تعودوها من قبلُ . خذ لذلك مثلاً الربا ، فانه لا يلبث أن يتولى الحكم ويقبض على ناصية الأمر حتى يأمر بالقضاء عليه واستئصال شأفته وإيصاد جميع الأبواب التي يخشى منها الوصول إليه . وكذلك لا يبيح القمار ، كائناً ما كان ، ولا يسمح للناس بأن يتعاملوا ويتعاقدوا بالطرق الفاسدة المحظورة في الشرع ، دع عنك دور البغايا والمومسات ، فان الحكم الاسلامي يأتي بنيانها من القواعد ويقضي عليها في أول ما يقضي عليه من الموبقات الاجتماعية . وعلى غرار ذلك يُكره غير المسلمات من النساء على التزام آداب الحياء والحشمة ويمنعهن من تبرج الجاهلية ويجبرهن على التقيد بالقيود اللازمة التي قررها الشرع في ستر

عورات النساء . وكذلك يراقب دور السينما والملاهي ويطهرها من أرجاس الخلاعة والفجور ويوجهها وجهة الخير والرشاد ، هذه وأمثالنا من الشؤون الاجتماعية وغيرها ، لا تسمح بهـــا المملكة الإسلامية ، حفظاً لمصالح المجتمع البشري وسعادته ، بل ضناً بكرامتها وحرصاً على المحافظة على خصائصها ومقومتها ، لا تسمح لرعيتها من غير المسلمين ان يجروا على سننهم وتقاليدهم التي يعدهـــا الاسلام خطراً على المجتمع ومبعث شر وفساد للانسانية ، وان أمكن أن لا يكون فيها غضاضة في شرائعهم ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من التعامل بها حسب عاداتهم وتقاليدهم .

والذي يظهر له في بادىء الرأي أن الاسلام قـد جاوز في هذ الباب حدود التسامح واختار طريق الاضطهاد والتضييق ، فما أجدر به أن يوازن بين ما عامل به الإسلام من التسامح وما عاملت به غيره من المذاهب الانقلابية أو الاصلاحية مخالفيها ، فان هذه الموازنة تظهر له الأمر الصراح وتبين الفرق العظيم الذي يجده بين الاسلام وغيره من المذاهب والنظريات في هذا الشأن . فإنه يرى أن المذاهب الانقلابية والاجتماعية الأخرى غير الاسلام قد بلغت من الاضطهاد والتضييق مبلغاً يكاد يضيق به ذرعاً في الفكر والرأي ، حتى أنهم لا يرون لهم ملجأ إلا في الجلاء عن

أوطانهم والتشرد في آفاق الأرض ، أما الاسلام فبازاء هـذه المعاملة الشنيعة يضمن السلامـة والدعة لكل فرد من أفراد البشر ، كائناً من كان ويهيء لهم فرص الرقي والازدهار في كل ناحية من نواحي الحياة ويعاملهم بالحسنى مما لا تجد ولن تجد له نظيراً في العالم .

لا استعمار ولا استغلال :

ومما يجب علي أن أعيد ذكره في هذا المقام ان « الجهاد » في نظر الاسلام لا يكون الا في « سبيل الله » وابتغاء وجه الرب تعالى وحده . فلا يجوز للمسلمين أبداً ان يحذوا حذو الملوك المستبدين والطغاة المستكبرين اذا أنعم الله عليهم بالنصر والفتح في جهادهم وغزواتهم . فان المسلم لا يقاتل ، ولا يجوز له أن يقاتل وهو مسلم ، ليتبوأ عرش الكسروية ويسخر البلاد والرقـاب لمآربه ويرخي لنفسه العنان يعيش في رغد وينغمس في اللذات والشهوات ، شأن الطغاة المستكبرين الذين يستغلون خيرات الأرض لاغراضهم ويتخذون من عبـاد الله المستضعفين مطية لاهوائهم وشهواتهم . لا ، والله ما ذلك من الجهاد في سبيل الله في شيء . وانما هو القتال في سبيل الطاغوت ، والاسلام يتبرأ من مثل هذا الجهاد وأمثال تلك الحكومات الغاشمة . أما الجهاد الاسلامي فلا يزيد المسلمين الا صبراً على المكاره وزهداً في متع

الدنيا ولذائذها ، وفوق ذلك يكلفهم المشاق البالغة ويروضهم على بذل النفوس والنفائس والتجرد من مطامع الدنيا وشهواتها في سبيل الله . واذا انعم الله على المسلمين بالفتوح وأيدهم بنصر من عنده فامتلكوا ناصية الأمر ودانت لهم الرقاب ، فلا تسل عما يحسه من يتولى الحكم من بين المسلمين الصادقين من ثقل المسؤولية وعبء الأمر ، فانه ربما تمضي عليه أسابيع وشهور لا يتمتع في النهار بالراحة ولا يذوق لذاذة الكرى في الليالي حرصاً على مصالح الرعية وتفقداً لأحوال العجزة المستضعفين منهم . وزد على ذلك أن الأمير المسلم لا يجوز له أبداً أن يتمتع بلذائذ الحياة الشهية ويتنعم بأبهة الملك وفخفخة الامارة ، مكافأة على الجهود التي يبذلها في اصلاح شأن الملك ومراقبة نظم الحكومة العديدة المتشعبة ، مع أن الحكومات في الدنيا لا يتهافت الناس عليها وعلى التدخل في إدارتها وتسيير شؤونها الا حرصاً على تلك الأبهة والفخفخة ولذائذ الحياة ومتعتها . فالذي يتولى الأمر من بين المسلمين لا فضل له على سائر رعيته الا بالتقوى ولا سلطان له عليهم إلا بأمر من الله ورسوله ، فليس له أن يتبوأ عرش العظمة والجلالة ويتظاهر بعلو شأنه وارتفاع منزلته ولا يجوز أن يخضع رقاب الناس ويجعلهم يذعنون لجبروته ، وكذلك ليس في مكنته أن يتقدم خطوة

في طريق يعارض الطريق الذي أوضحت معالمه الشريعة الغراء ويحرك ساكناً غير مستند من كتاب الله وسنة نبيه ، ولا يقدر أن يعفي نفسه أو أحد أصدقائه وذوي قرباه من حق يجب عليه اداؤه لأي رجل، مهما يكون حقيراً أو صغيراً في المجتمع، وأيضاً لا يسوغ له أن يأخذ حبة من خردل أو يمتلك شبراً من أرض من غير أن يكون له حق فيها . وحرام عليه أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يفضل – ولو قليلاً – عما يقوم بأود حياة رجل من أوساط الناس . والمسكين – وما أحراه أن يسمى مسكيناً ، وأي رجل أحق بالشفقة واقرب الى « المسكنة » من الذي يتولى أمر المسلمين وهو محاط بهذه القيود الثقيلة – ليس له أن يشيد الأبنية الشاهقة ولا يباح له أن يتبسط في المعيشة أو يأخذ حظه من نعيم الحياة وبلهنية العيش، فانه ما كان له أن يذهل عن واجباته ولو لمحة واحدة، ولا يسعه أن يغفل ، ولا طرفة عين ، عن اليوم الذي يحضر فيه بين يدي ربه ويحاسب على أعماله حساباً عسيراً . وهذا الشعور بالمسؤولية وهذه الخشية الالهية ، هي التي تملك عليه نفسه وأهواءه وتشرف عليه في غدواته وروحاته . فان الحاكم المسلم يرى ويعتقد انه محاسب بين يدي ربه على جميع أعماله ، جليلها وحقيرها ، كبيرها وصغيرها ، فكأني به يتفكر في

نفسه : ماذا يكون من أمري في ذلك اليوم العسير اذا خُنتُ اليوم أمانة او اقتطعت ذراعاً من أرض أو تكبرت في أرض الله بغير الحق وظهرت مني بوادر الظلم والعسف أو خالطت أعمالي شوائب الاثرة واتبعت الهوى في ما أقوم به من عمل ، يتفكر في هذه كلها ، فيرتدع عنها ويمتنع خوفاً على نفسه من سخط الله وغضبه . وأيم الحق ان الذى يطمع في الدنيـــا والتمتع بما فيها من لذات الحياة وأسباب العيش الرغيد ، لا يتجـاسر أبداً على أن يتولى أمر المسلمين بيده . وإذا رأيت أحداً يجترىء على ذلك ، وبه من طمع الدنيـــا والافتنان بزخارف الحياة العاجلة ما لا يطيق دفعه ، فاعلم أنه أخرق قليل العقل لا يعرف ما هو مقبل عليه ولا يدري مـــا هو بصدده ، لأن رجلاً من عـامة رجال المسلمين يكسب رزقه بصناعة أو تجارة ، كيفما كانت ضئيلة ، هو أحسن حـــالاً وأرغد عيشاً من ولي أمر المسلمين ، فانه يشتغل في نهـــاره ويكسب أكثر ممـــا يعطي خليفة المسلمين من بيت مـــال الحكومة ، وينـــام ملء جفونه طول الليل ، لا يُقِضُّ عليه مضجعه شيء . وأما الخليفة المسكين ، فلاحظ له من أسباب المعاش كحظ التاجر أو العامل ولا يتاح له أن يذوق لذاذة الكرى كعامة الرجال .

هذا هو الفرق الجوهري أو الأساسي بين الحكومة الاسلامية وغيرها من الحكومات . فان الطبقة الحاكمة في الحكومات غير الاسلامية تستبد بموارد الثراء وتستغل خيرات الأرض لمآربها وتتبوأ عرش الالوهية في أرض الله طغياناً وكفراً . أما الحكومة الاسلامية فهي بعكس هاتيك الحكومات الجائرة ، فان الطبقة الحاكمة في الحكومة الاسلامية ، لا يكون من همها إلا اسداء المعروف إلى الرعية والترفيه عنهم من غير فرق بين عامتهم وخاصتهم ولا تجعل نصيبها من موارد الدولة إلا كنصيب عامة الناس . وإذا وازنت بين ما كان يمنح عمال الحكومة الاسلامية أو قضاتها وولاتها من الجرايات الشهرية وبين ما كان يعطى أمثالهم في الحكومات المعاصرة لها من الرواتب الضخمة أو ما يناله موظفو الحكومات المستعمرة الحاضرة من المرتبات الباهظة ، تبين لك ما بين غزوات الاسلام وفتوحه وبين جشع التسلطية وخطتها الاستعمارية من الفوارق الروحية والجوهرية العظيمة . فما كان لولاة المقاطعات الكبيرة أمثال خراسان والعراق والشام ومصر في الحكومة الإسلامية من الرواتب ما يناله اليوم موظف حقير في الحكومات الحاضرة . وناهيك مثلا بأمير المؤمنين أبي بكر الصديق ، خليفة رسول الله ﷺ فانه كان يدبر شؤون مملكة واسعة ، وله من بيت مال الحكومة ما لا

تزيد قيمته على مائة روبية شهرياً . وكذلك الفاروق عمر بن الخطاب ، فما كان يأخذ لقوته وعياله أكثر من مائـــة وخمسين روبية شهرياً ، مع أن خزانة المملكة في عهده تكاد تغص بمـــا كان ينهال عليها من موارد الغنيمة وجبايات الأرض مما انعم الله عليهم بالفتوح الباهرة في أراضي الروم وبلاد فارس . فالذي يظهر لأول وهلة أن الإسلام أيضاً يفتح الفتوح ويدوخ الامصار والبلاد كالتسلطية والاستعمار ، ولكن شتان مـــا بينهما في الجوهر والمبدإ والغاية :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى
يزيـــد سليم والأغر بن حـــاتم

وأين الثرى من الثريا والأرض من السماء ؟

هذه هي حقيقة « الجهاد » الذي أبدأوا وأعادوا في تشويه سمعته وتحريف كلمته والذي طالما سمعتم فيه شيئاً كثيراً . فان قلتم : فأين الاسلام الذي بينت خصائصه في ما تقدم ؟ وأين « الحزب الاسلامي » الذي فصلت القول في مقوماته وواجباته؟ وفي أي أرض دفن تصور الجهاد الحقيقي الذي كشفت الغطاء عن وجهه آنفاً ؟ وما بالنا نجد بلاد المسلمين كلها خلواً من هذه الفكرة وذلـــك التصور الأسمى ؟ قلت : الذنب ليس بذنبنا

والتبعة في ذلك ليست علينا . إنما الذنب ذنب الذين حادوا بالمسلمين عن الصراط السوي وهدفهم الحقيقي، وعللوهم بالتعاويذ والتمائم والسبحات والرياضات ، والذين منوا المسلمين بالأباطيل والترهات ، وعدوهم بطرق للنجاة سهلة تريحهم من أهوال الجهاد وشدائد الكفاح ، فالجأوهم الى قبور وزوايا ليتوسلوا بها وبرجالها الى الغاية المنشودة من السعادة الابدية ، والتبعة على الذين شغلوهم عن أصول الاسلام ومبادئه الكلية الشاملة وصرفوا بأبصارهم الى مسائل من فروع الفقه لا تنقع من صدى ولا تسمن من جوع في حل قواعد الاسلام ، حتى نسوا ما خلقوا لأجله وذهلوا عن الغاية السامية التي يدعو اليها الإسلام وجعلوها نسياً منسياً . وان اردت الاستزادة من أسباب تقلص ظل الاسلام وضؤولة نفوذ الحزب الاسلامي اليوم ، فارجع ببصرك الى الامراء والزعماء والقواد الذين يظهرون إيمانهم بكتاب الله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه مما يؤسف له انهم لا يرون في حق الكتاب العزيز والشريعة التي جاء بها النبي الأمي العربي صلى الله عليه وسلم على أنفسهم غير ان يشتركوا في حفلات المولد النبوي تارة وان يدعوا تارة أخرى بعض حفاظ القرآن ليقرأوا ختمة او ختمتين في بيوتهم ترفيهاً عن أرواح ذوي قرباهم ، وإن سمت بهم أنفسهم ، القوا خطباً في تمجيد الاسلام

والثناء على تعاليمه ، كما يثني الناس اليوم على الشعراء ويكيلون لهم المدح جزافاً أما العمل بهذه الشريعة والسعي وراء تنفيذها في العالم ، فليسوا من ذلك في ورد ولا صدر ، بل يحسبون أنفسهم كــأن الله لم يكلفهم بشيء من ذلك . وان نفوسهم غير مستعدة أصلاً للتقيد بهــذه القيود وتحمل أعباء هذه المسؤوليات التي كلف الله بها عباده والتي يلقيها الاسلام على الذين يؤمنون به ويدعون اتباعه،فانهم يتمنون حياة رغيدة ويبتغون طريقاً للنجاة سهلا .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الفهرس

تُطلب جميع منشوراتنا من :

الشَّرِكَة المتَّحِدَة لِلتَّوزيع

بيروت - شارع سُوريَة - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٣١٩٠٣٩ - ٩٥٥٠١ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران